المستوى الثاني/الكتاب الثاني

من يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

اللّٰهم لا عِلْم لنا إلَّا ما علَّمتنا، اللّٰهم علِّمنا ما ينفعُنا وزِدْنا علمًا.

أمَّا بعدُ.. فقد ثبت في «الصَّحيحين» وغيرهما من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبي ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».[1]

وهـٰذا الحديث العظيم يدلُّ دلالةً ظاهرة علىٰ عِظم مكانة الفقه في الدِّين، وأنَّ الاشتغال بهـٰذا الأمر العظيم والعنايةَ به من علامات وإماراتِ إرادة الله عَزَّوَجَلَّ الخير بعبده، والإرادة في الحديث هي الإرادة الكونيَّة القدرية «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا**» أي: كونًا وقدرًا؛ يوفِّقه -جلَّ وعزَّ- ويشرح صدره للاشتغال بالفقه في دينه.

وقوله: «**خَيْرًا**» جاءت منكَّرةً تفخيمًا وتعظيمًا وبيانًا لكثرة الخيرات التي يظفر بها ويفوز بها من وفَّقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للفقه في دينه، فمِن علامات الخير للعبد أن يُشرح صدرُه وأن تُقبِل نفسُه علىٰ الفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ، يُقبل علىٰ مجالسه ويرتَبط بقراءة كتب العلم وحِفظها ومذاكرتها ومدارستها، ويكون له في أيَّامه نصيبٌ من طلب العلم وتحصيله بحيث لا يمرُّ عليه يومٌ من أيّامه إلَّا ويحصِّلُ فيه علمًا؛ لأنَّ من أهداف المسلم في يومه التي يسعىٰ في طلبها ويجدُّ في نيْلها العلم النافع؛ بل هو أهم هدفٍ يَطلبه المسلم ويسعىٰ في تحصيله في يومه.

ونلاحظ هـٰذا -أيّها الإخوة الكرام- في الدَّعوة المباركة العظيمة الميمونة التي كان يدعو بها نبيُّنا -صلواتُ الله وسلامه عليه- كلَّ يوم بعد صلاة الصُّبح كما في حديث أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّ النّبي ﷺ كان يقول كل يومٍ بعد صلاة الصّبح بعد أن يسلِّم «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**» وفي روايةٍ «**وعَمَلًا صَالحًا**» رواه الإمام أحمد في «المسند» وابن ماجه في «سننه» وغيرهما،[2] وهو حديث ثابت، فهـٰذه دعوة عظيمة كان يدعو بها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كل يوم إذا أصبح.

---

(١) رواه البُخَاري (ح ٧١)، ومسلم (ح١٠٣٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (ح ٩٢٥)، وأحمد (ح ٢٦٤٨١) وفيه «وَرِزْقًا وَاسِعًا»، وصححه الألباني في الرّوض.

وبدأ هـٰذه الدعوة بالعلم النافع، قدَّمه علىٰ الرِّزق الطيِّب وعلىٰ العمل المتقبَّل فبدأ به، والبدء يدلّ علىٰ الاهتمام.

وهـٰذه الأمور الثّلاثة التي جمعها النبي ﷺ في هـٰذه الدَّعوة المباركة هي في الحقيقة أهداف المسلم في يومه، فالمسلم ليس له في يومه؛ بل في أيامه كلِّها إلَّا تحقيق هـٰذه الأهداف الثلاثة وتحصيلها:

* العلم النافع،

* والرِّزق الطَّيِّب،

* والعمل الصَّالح.

وليس للمسلم في أيامه هدف رابع غير هـٰذه الأهداف، فجمع النّبي ﷺ في هـٰذه الدعوة العظيمة أهداف المسلم في يومه، وجاء بهـٰذه الدّعوة في أوَّل اليوم وبدايته ليستهلَّ اليوم بطلب العون من الله عَزَّوَجَلَّ ودعائه -سُبحانه- الإعانةَ والتَّوفيق لتحقيق هـٰذه الأهداف وتحصيلها؛ لأنَّه إن لم يكن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عونٌ للعبد لا يمكن أن يحصِّل شيئًا، ولهـٰذا مرّ معنا في حديثٍ معاوية «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ**» فإذا لم يكن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عونٌ للعبد وتوفيقٌ وتسديدٌ؛ فإنه لا يتمكّن من تحصيل هـٰذه الأهداف العظيمة.

ولهـٰذا فإنَّ المسلم ينبغي عليه كلَّ يوم إذا أصبح بعد أن يصلي صلاة الفجر ويأتي بالأذكار المشروعة أدبار الصّلوات: الاستغفار ثلاثًا، وقول: اللَّهُمَّ أنت السَّلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام. والتهليل، والتسبيح ثلاثًا وثلاثين، والتكبير ثلاثًا وثلاثين، والتحميد ثلاثًا وثلاثين، وإتمام المائة بلا إلـٰه إلا الله، وقراءة آية الكرسي، وقل هو الله أحد، والمعوِّذتين، التي كان يأتي بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أدبار الصلوات.

فبعد هـٰذه الأذكار الرّاتبة الموظَّفة أدبار الصلوات يدعو بهـٰذه الدّعوة العظيمة ويأتي أيضًا بالأذكار المشروعِ للمسلم أن يأتي بها في صباحه، فيكون بذلك استهلّ يومه بحسن التّوجه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والالتجاء إليه وطلب المدِّ والعَوْن والتوفيق منه سبحانه أن ييسر له تحقيق هـٰذه الأهداف العظام: العلم النافع، والرِّزق الطيِّب، والعمل المتقبل.

وبدْء النبيّ ﷺ هـٰذه الدّعوة بالعلم النَّافع فيه أنَّ العبد لا يستطيع أن يمِيز بين رزقٍ طيِّبٍ وخبيث وعملٍ صالحٍ وطالح إلا بالعلم النَّافع، فالعلم النَّافع ضياءٌ لصاحبه ونورٌ له يهتدي به في الظُّلمات، ويمِيز به بين الحقّ والضّلال والهُدىٰ والباطل، والحرام والحلال، والسُّنة والبدعة، كلُّ ذلكم لا يمكن للعبد

أن يميز بينه إلا بالعلم النافع المستمد من كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ، فتوفيق الله ﷻ للعبد وشرْحُ صدره لتحصيل العِلْم النّافع والإقبال عليه هـٰذا من أماراتِ ودَلالاتِ إرادة الله ﷻ الخيرَ به.

قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» والمراد بالفقه في الدِّين أي في جانبيه:

الأكبر؛ وهو العقائد.

والأصغر؛ وهو الأحكام.

فالفقه في الدِّين ليس خاصًّا بمعرفة الأحكام؛ بل يتناول تناولًا أوليًّا الفقه في العقيدة التي هي أساس الدِّين، وعليها قيامُه.

فمعرفةُ أصول الإيمان وقواعده العظام: كالإيمان بالله، والإيمان برسله، وملائكته، وكتبه، وغير ذلك من أصول الإيمان، كلُّ ذلكم داخل في الفقه في الدِّين؛ بل هو أساسٌ يُبنىٰ عليه الدِّين، وفي حديث جبريل المشهور لمَّا سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن الإسلام، وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شرائع الإسلام الظاهرة الشّهادتين والصّلاة والصّيام والزّكاة والحج، ولما سأله عن الإيمان ذكر عقائد الدِّين الباطنة التي في القلب، وهي أصول الإيمان العظيمة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، ثم في تمام الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هَـٰذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ [أَمْرَ] دِينِكُمْ»[1]، فعُلم أنَّ الدِّين:

يتناول الشَّرائع الظّاهرة من صلاةٍ وصيامٍ وغير ذلك من الأحكام.

ويتناول أيضًا العقائد التي تكون في القلب الإيمان بالله والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، فالاشتغال بتعلُّم العقيدة ومعرفة أصول الإيمان هو من الفقه في الدِّين؛ بل هو أساسُ الفقه في دين الله، ودينُ الله ﷻ إنَّما يُبنىٰ علىٰ ذلك.

وإذا كان العبد مُشتغلًا بالأعمال مُعتنيًا بالعبادات بلا عقيدةٍ صحيحة يُقيم عليها دينَه فإنّ أعماله لا تكون مشكورةً عند الله مرضيةً عنده، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لا بد من هـٰذا؛ لا بد من الاعتقاد؛ لا بد من أصول الإيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]؛ أي: مرضيًّا مقبولًا عند الله ﷻ، وفي آية أخرىٰ قال جلّ وعلا: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ

---

(١) أخْرَجَه مُسْلِمٌ (ح٨) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة]، فالعمل لا يكون مرضيًّا مقبولًا مشكورًا عند الله ﷻ إلا إذا كان قائمًا علىٰ الاعتقاد الصّحيح والإيمان السليم المستمد من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فقوله: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» يدخل في هٰذا دخولًا أوّليًّا دراسة العقيدة ودراسة التوحيد ومعرفة أصول الإيمان، فعناية العبد بذلك هي من الإرادة الله ﷻ الخير به.

والعقيدة شأنها في الإيمان والدِّين كشأن الأصول للأشجار والقواعد للبنيان، فكما أن الأشجار لا تقوم إلا علىٰ أصولها، والبنيان لا يقوم إلا علىٰ عماده، فكذلك الدِّين لا يقوم إلا علىٰ أصوله -أصول الإيمان- وهي أمور العقيدة التي ينطوي عليها قلب المؤمن الصَّادق ويُعمر بها فؤادهُ، ثم تَزِينُ جوارحه بالأعمال الصالحة تبعًا لصلاح قلبه كما قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».[1]

فإذا عُمِر الدَّاخل وصلحَ بالإيمان فالجوارح تبعًا له، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**إِنَّ عَمَّارَ بن يَاسِرَ مُلِئَ إِيمَانًا حتىٰ مُشَاشِه**»[2] يعني: حتىٰ أطراف أصابعه امتلأ إيمانًا من داخله، فالإيمان عندما يعمر القلب ويعمر داخل الإنسان الجوارح تَبع.

فالفقه في دين الله ﷻ يتناول بالدّرجة الأولىٰ ويتناول تناولًا أوّليًّا الفقه في العقيدة وأمور الإيمان التي يصلح بها داخل الإنسان، ليس المراد صلاح الظَّاهر دون الباطن؛ بل لابد أن يصلُح باطن الإنسان ويستقيم علىٰ الإيمان بالله وعلىٰ الإيمان بما أمر الله ﷻ عباده الإيمان به ويكون هٰذا الإيمان الذي ينطوي عليه قلبُه ركيزة العمل الذي عليه يكون البناء، وعليه يكون قيام الدِّين.

ويدخل في قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» معرفة الأحكام ومعرفة الشّرائع معرفة العبادات التي أمر الله ﷻ عباده بها.

ويدخل في هٰذا دخولًا مُقدَّمًا بعد العقائد مباني الإسلام الخمسة التي ذكرها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في قوله من حديث ابن عمر «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ**

---

(١) رواه البُخَاري (ح ٥٢)، ومسلم (ح١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي (ح٥٠٠٧)، عن رجل من الصحابة لم يسمَّ، وابن ماجه (ح ١٤٧) من حديث علي بن أبي طالب، وغيرهما، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (ح٨٠٧).

الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحرَامِ». [1] فهـٰذه سمَّاها النّبيُّ ﷺ مباني الإسلام؛ قال: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**» فالفقه فيها من الفقه في دين الله؛ بل هو من أعظم الفقه في دين الله.

ثم بعد ذلك أعمال الدِّين الأخرىٰ، ومعرفة الحلال والحرام.

ثم بعد ذلك يدخل في معرفة الرّغائب والسُّنن والمستحبات متدرِّجًا في الطَّلب والتَّحصيل والتفقُّه في دين الله ﷻ.

العقيدة الأساس الذي يُبنىٰ عليه الدِّين، ثم مباني الإسلام الخمسة، ثم معرفة الحلال والحرام كما جاء في الحديث؛ الرجل الذي قال للنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: أرأيت إذا صليتُ المكتوبات وصمتُ رمضان.. قال في آخره: وأحللتُ الحلال وحرّمت الحرام أأدخل الجنة؟ قال: «نعم».

فإذا عرف الإنسان العقيدة واعتنىٰ بها وعرف مباني الإسلام، ثم بعد ذلك يعرف الحلال والحرام، ثم بعد ذلك ينتقل لجانب الرَّغائب والمستحبَّات ومعرفة السُّنن، فإذا انطلق العبد هـٰذه الانطلاقة المباركة وسار هـٰذا السَّيْر المبارك وعُني بهـٰذا الطلب والتّحصيل؛ فهـٰذا علامة ظاهرة علىٰ أنَّ الله ﷻ أراد الخير به.

وقد قال العلماء -رحمهم الله- إنَّ مفهوم المخالفة لهـٰذا الحديث أنَّ من لم يوفَّق لطلب العلم، ولم يكن في قلبه رغبة لتحصيله، هـٰذا من علامات عدم إرادة الخير به، فهـٰذا من علامات عدم إرادة الخير به؛ لأنّ من أراد اللهُ به خيرًا فقهه في الدِّين، وفّقه للفقه في دينه، فمفهوم المخالفة أنَّ من لم يُقبل قلبُه علىٰ العلم ولا علىٰ تحصيله هـٰذا من علامات عدم إرادة الخير به.

ولهـٰذا ينبغي علىٰ العبد أن يشتدّ حرصه في أيّامه، وأن يسأل ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يعلمه، وأن يفقِّهه، وأن يشرح صدره، وأن يُعيذه من شرِّ نفسه ومن الشيطان حتىٰ تنشرح صدره وتُقبل علىٰ العلم، ويكون له نصيب -ولو نصيبًا يسيرا- في أيّامه من تحصيل العلم، ويحرص ألَّا تغرب شمس يومٍ إلا وقد حصّل فيه شيئًا من العلم قلّ أو كثر، يكون له نصيبًا؛ لأنه هدف من أهداف المسلم المقدمة في يومه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا**» أوّل ما يبدأ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ يومه بهـٰذا «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا**» إذن لا يليق ولا يُناسب أن تغيب شمس اليوم دون أن يكون للإنسان حظٌّ من العلم؛ لأنه يخسر يومه بخُسران هدفٍ عظيمٍ من أهدافِ اليوم؛ بل هو الهدف المقدَّم في أهداف اليوم كما هو واضح في دعوة النّبي الكريم عَلَيْهِ

---

(١) رواه البخاري (ح٠٨)، ومسلم (ح١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وذكر أهل العلم أيضًا في معنىٰ هـٰذا الحديث حديث معاوية أنّ قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» المرادُ بالفقه في الدِّين هنا الفقه المستلزم للعمل؛ أي: الذي يطلبه صاحبه للعمل، أما الذي يطلب العلم لتكثير المحفوظات وللمباهاة بين الإخوان، ولكسب الثَّناء والمدح، أو غير ذلك لا يكون داخلًا في قوله: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

حتىٰ وإن كثرت علومه وكثرت محفوظاته وكثر تحصيله؛ لا يكون داخلًا في الحديث؛ وهو أنَّ الله ﷻ أراد به خيرًا، لأنّ هـٰذه العلوم وهـٰذه المحفوظات التي حصَّلها هي في الحقيقة مع حاله هـٰذه حجَّةٌ عليه لا له؛ فقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»،[1] وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا [الْكِتَابِ] أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[2] خرّجهما مسلم في «صحيحه».

وجاء عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ أنّه قال: ما جلس أحدٌ لهـٰذا القرآن - يعني ليقرأ هـٰذا القرآن إلا قام منه إمَّا بزيادة أو بنقصان. والذي يقوم منه بزيادة هو ذاك الذي يتدبَّر ويحرص علىٰ العمل بهـٰذه الآيات بهـٰذه المواعظ، بهـٰذه الأوامر، بهـٰذه النَّواهي، وإلَّا ما فائدة أن يقرأ الإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢]، وربّما قبل أن يقوم من المسجد في مكانه يلتفت علىٰ صاحبه يغتابُ شخصًا، أو يسخر، أو غير ذلك من الأمور التي نُهي عنها في القرآن. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: أُنزل القرآن ليُعمل به فاتّخذ الناس قراءته عملًا. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: معنىٰ (اتخذ الناس قراءته عملا) أي اشتغلوا بالقراءة فقط، يعني قراءة حروف القرآن، أما تدبُّر القرآن وعقْلُ معانيه والعمل بدلالاته فهـٰذا لا يُعنون به، هـٰذا ليس من علامات إرادة الخير بالعبد ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، ولهـٰذا ينبغي أن تتّجه همَّةُ طالب العلم في طلبه للعلم إلىٰ العمل، يطلب العلم ليعمل تكون هـٰذه النية قائمة في قلبه، يطلب العلم ليعمل، حتَّىٰ في تعلُّمه للسُّنن والمستحبَّات يحرص علىٰ أن يطلب علم هـٰذه الأشياء للعمل.

وقد قال بعض السلف وهو قيس المُلَّائي رَحِمَهُ اللهُ: (إذا سمعت بالحديث فاعمل به ولو مرة تكن من

---

(١) رواه مسلم (ح٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (ح ٨١٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أهله). ومراده رَحِمَهُ اللَّهُ بالأحاديث التي فيها سنن ورغائب ومستحبَّات.

أمّا الأحاديث التي فيها فرائض وواجبات ونهي عن محرَّمات هـٰذه يكون العمل بها مستمرًّا ليكون من أهلها، لا يكفي فيها أن يعمل مرّةً واحدة، لا بد أن يستمر.

أمّا السّنن المندوبات يحرص الإنسان أن يكون طلب عِلْمها مُستصحَبًا نيةً في القلب وهي العمل بذلك حتىٰ يكون من أهل هـٰذه الأحاديث، ومن أهل هـٰذه السُّنن المأثورة عن رسول الله -صلواتُ الله وسلامه عليه.

فإذن المراد بقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» هـٰذا إذا أُريد بطلب العلم: العلم المستلزم للعمل، أمَّا إذا كان طلب العلم مجرَّد طلب للعلم فقط دون استلزام للعمل فهـٰذا شرطٌ لإرادة الخير بالعبد وليس موجبًا له كما قال ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن من شرط إرادة الخير أن تفقه دين الله لا يمكن للعبد أن يقوم بأعمال الدين بدون الفقه، فإذا حصّل الفقه حصّل شرطا من شروط قبول الأعمال فإن عمل فاز بالثواب، وإن لم يعمل لم يحصِّل، فلا يدخل بمجرَّد العلم وحده في قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

لا يدخُل بمجرّد العلم وحده، لا يدخُل بمجرّد جلوسه في حلق العلم في قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» حتىٰ يكون هـٰذا العلم مستلزمًا للعمل، وتكون همّة صاحبه في طلبه وتحصيله له متَّجهة إلىٰ العمل بهـٰذا العلم وتطبيقه، وإلَّا فإنَّ العلم يكونُ عند مثل هـٰذا الشَّخص عارِيَّة تذهب منه يومًا من الأيام ولا استفاد منها، عاريّة بقيت عنده وقتًا ولم يستفد منها، والذي يستفيد هو الذي يعمل بهـٰذا العلم الذي حصَّله واكتسبه ويُجاهد نفسه علىٰ ذلك، ويكون من أهل هـٰذا الحديث «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وقد جاء في حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النَّبي ﷺ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا [ابْنِ آدَمَ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ [شَبَابِهِ] فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[1] فهـٰذه خمسة أسئلة يسأل عنها العبد يوم القيامة، سؤالٌ عن العُمر وسؤالٌ عن الجسم وسؤالان عن المال وسؤال عن العلم؛ خمسة أسئلة لا تزول قدَمَا عبدٍ يوم القيامة حتىٰ يُسأل عنها.

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٤١٧)، وأيضا (ح١٤١٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصححه الألباني في الصحيحة (ح٩٤٦).

فإذن هـٰذا يُفيد أنَّ مقصود العلم العمل، ولهـٰذا يُسأل يوم القيامة عن عِلْمه ماذا عمِلَ به، فمقصود العلم العمل، يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل

يكون العلم عاريّة تذهب دون انتفاع ودون فائدة؛ بل أحيانًا بعض النّاس يستفيدُ النَّاس من علمه أكثر مما يستفيد هو من علمه.

وكان مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول في دعائه كما جاء في «الزهد» للإمام أحمد: اللَّهُمَّ لا تجعل غيري أسعد بما علَّمتني منِّي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو من أجمع الدُّعاء أو من أعظم الدُّعاء.

وغيرك يكون أسعد بعلمك منك إذا عمل به، ولم تعمل به أنت، ولهـٰذا المُصيبة عظيمة علىٰ الإنسان إذا كان يستكثر من العلوم ولا يُعنَىٰ بالعمل، ويستكثر بالعُلوم والتَّعليم والأمر والنَّهي ولا يستكثر من العمل.

جاء في «المُسند» -وهو حديث حسن- من حديث أنس أنّ النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**رأيتُ ليلة أُسري بي قوم تُقرّضُ شفاهُهم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء خطباء من أمَّتك يأمرون الناس بالبر وينسَوْن أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**».

وجاء في «الصحيحين» من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُجاءُ برجلٍ يوم القيامة فيُلقىٰ في النَّار فتندلقُ أقتابهُ – أي: تخرجُ مصارينهُ وأمعاءُ بطنه – ويدور في النار كما يدور الحمار بالرَّحىٰ، فيأتيه أهل النار ويقولون: أي فُلان ما شأنك؟ ألم تكن تأمُرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر! فيقول: بلىٰ؛ كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» نسأل الله العافية والسلامة.

ولهـٰذا ينبغي علىٰ العبد وعلىٰ طالب العلم أن يُعنىٰ علىٰ ترويض نفسه علىٰ العمل، وأن تكـون همَّتـه متَّجهة إلىٰ العلم لا لمجرّد التَّحصيل، ولا مجرَّد السَّماع؛ لأن مجرَّد السماع بدون همّـة في تحصـيله هـو من إكثارِ حُجج الله علىٰ العبد.

وقد بلغ شدة ورع السلف وخوفهم في هـٰذا الباب أن نُقل عن غير واحد منهم أنه قال: وددتُ لو أن الأمر كَفافًا - يعني في هـٰذا الذي حصَّله من السنن والأحاديث والحفظ – لا لي ولا عليّ. وهـٰذه الكلمة خرجت منهم من شدّة الخوف، الخوف من ملاقاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والسُّؤال عن العلم، لا تزول حتىٰ يُسأل عن

علمه ماذا عمل به، فكان بعضهم يقول: وددت لو أن الأمر كفافًا لا لي ولا عليّ – يعني كل هـٰذه العلوم التي حصَّلها يودّ أن الأمر كفافًا لا له ولا عليه، يقولون ذلك من شدة الخوف.

وقد جمع الله ﷻ لهم مقامين عظيمين:

مقام الإحسان في العمل.

ومقام الخوف من الله ﷻ ألا يُقبل منهم؛ كما قال الله ﷻ عن المؤمنين الكُمَّل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] أي: خائفة ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة، خائفة من ماذا؟ قالت عائشة رضي الله عنها للرسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: أو الرجل يسرق ويزني ويَقتل ويخاف أن يُعذب؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق؛ بل هو الرَّجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألَّا يقبل**».

ولهـٰذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: إنّ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن.

(المؤمن جمع بين إحسانٍ ومخافة) يحسن في علمه، في قوله، في عمله، في عبادته، في قُرباته لله سبحانه وهو خائف، يطلب العلم وفيه الخوف والصلاة وفيه الخوف والطاعات الأخرىٰ كل عبادة يكون في قلبه مع الإتيان بها خوف وأيضًا يكون في قلبه الرّجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، ويمضي حياته علىٰ هـٰذا النَّهج.

أمّا المنافق إساءة في الأعمال وعدم خوف من ملاقاة ذي الجلال ﷻ، ولهـٰذا المُنافق تميلُ نفسه ميلًا شديدًا إلىٰ الدُّنيا فقط وكسبها والتصنّع بالأعمال لأجل تحصيلها ومراءاة النّاس، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]، بينما المؤمن الصّادق همة متجهة إلىٰ الآخرة وثوابها وطلب رضىٰ الله ﷻ والاستكثار من الأعمال التي هي سببٌ في الفوز بثواب الله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل]، فالأعمال سببٌ عظيمٌ لدخول جنات النعيم.

فقوله: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» المراد بالفقه في الدِّين هنا الفقه المستلزم للعمل، ولهـٰذا ينبغي علىٰ المسلم أن يُعنىٰ بذلك: بالعلم والعمل معًا ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة :٣٣]، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ العلم النَّافع ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ العمل الصالح.

وفي الدّعوة العظيمة التي يدعو بها المسلم مراتٍ وكراتٍ في أيامه ولياليه في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

المنعم عليهم هم الذين جمع الله ﷻ لهم ووفَّقهم للجمع بين العلم والعمل: علمٌ نافع وعمل صالح.

والمغضوب عليهم؛ من عندهم علم لا يعملون به، كما قال الله عن اليهود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥] أي: لم يعملوا بها.

والقسم الثَّالث من عنده عمل بلا علم، يجتهد في العبادات وأنواع القُربات لكن بدون علم بدون فقه، ولهٰذا يكثر في مثل هٰذا الضلالات والبدع والأهواء والخرافات؛ بل من النّاس من صار بسبب الجهل المطبق؛ من صار من جملة قُرباته التي يواظب عليها كل يوم الشِّرك بالله ﷻ، من جملة أعماله التي يواظب عليها كل يوم الشِّرك بالله ودعاء المقبورين والاستغاثة بهم والاستنجاد وصرف أنواع القربات جملة من عباداته التي يواظب عليها كل يوم، ويطمع أن تكون هٰذه سببًا لدخوله الجنة وهيهات، هيهات أن يكون الشرك سببًا لدخول جنات النعيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨ وَ١١٦]، وإذا علم المسلم أن القسمة ثلاثية:

* علمٌ وعمل.
* وعلمٌ بلا عمل.
* وعملٌ بلا علم.

وأن المنعم عليهم هم أهل العلم والعمل فإنه يجد ويجتهد في تحصيل الأمرين والعناية بهما ليكون من الذين أنعم الله عليهم.

اللَّهم يا إلٰهنا وربّنا وسيّدنا ومولانا وفقنا لما تحبه وترضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال، ومُنّ علينا جميعًا بالعلم النافع والرزق الطيب والعمل المتقبل، واهدنا إليك صراطًا مستقيمًا.

اللَّهم وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر.

اللَّهم وأصلح ذات بيننا، وألِّف بين قلوبنا واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من الظّلمات إلىٰ النور، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرِّيّاتنا وأوقاتنا وأموالنا، واجعلنا مباركين أينما كنّا.

اللَّهم اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

ربّنا إنَّا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين.

سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد ألا إلـٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلّىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إلٰـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهُمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللّٰهُمَّ علمنا ما ينفعنا وزدنا علما، اللّٰهُمَّ إنّا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا متقبلا.

أيها الأخوة الكرام..

مرّ معنا بالأمس شيءٌ من الكلام حول حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبي ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

وهو حديثٌ مُخرج في «الصحيحين» وغيرهما، وهـٰذا الحديث العظيم كما مرَّ معنا بالأمس يدلُّ دلالةً واضحة علىٰ مكانة العلم وعظيم فضله وشرف أهله وعظيم مكانتهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أعدَّ لأهله عظيم الثوابِ وكريم المآب.

قوله: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا**» جاءت «**خيرًا**» في هـٰذا السياق منكرةً منونةً وفي ذلك دلالةً علىٰ عظم ثواب هؤلاء، وكثرة ثوابهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما لهم علىٰ ذلك من الخير العاجل والآجل.

وعرفنا بالأمس ما ذكره أهل العلم من أنّ المُراد بالفقه في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الفقه المستلزم للعمل، هو الفقه المستلزم للعمل؛ لأنّ العمل مقصود العلم، وإنما يُطلب العلم للعمل، وإلا فإنّ العلم يكون عاريّةً عند صاحبه تذهب عنه دون أن ينتفع بها، ودون أن يستفيد منها، ولهـٰذا فإن العلم مقصوده العمل، يطلبُ لأجل العمل، والتقرُّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق للعلم والعمل معًا لا للعلم بدون العمل ولا للعمل بدون العلم، كما يدلّ لذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]، وفي الآية الأخرىٰ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

ففي إحدىٰ الآيتين ذكر جلّ وعلا أنه خلق الخلْق والسَّمٰوات والأرض ليعلموا أنه جلّ وعلا علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وأنه قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، وهـٰذا فيه أنّ مقصود الخلق العلم. والآية الثانية قال فيها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وهـٰذا فيه أنّ مقصود الخلق العمل والعبادة والتقرب إلىٰ الله ﷻ.

ولهـٰذا قال أهل العلم رحمهم الله: إنّ التوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه له جانبان:

* جانب علمي.

* وجانب عملي.

وكلٌّ منهما مطلوب، ولا يستقيم توحيد عبدٍ إلا بهما، ولا يكون موحِّدًا إلا بالعلم والعمل، إلا بالعلم والإيمان والإقرارِ والإثباتِ لكل ما أمر الله ﷻ عباده بالإيمان والإقرارِ به، وبالعمل بالتعبّد لله ﷻ وبطاعته سُبْحَانَهُ بفعل أمره، وترك ما نهىٰ عنه ﷻ.

وقد انقسم النَّاس من حيث تحقيقهم للعلم والعمل الذي هو مقصود الخلق إلىٰ أقسام ثلاثة، ولعظم شأن هـٰذه أو معرفة هـٰذه الأقسام الثلاثة فإنَّها تتكرَّر مع المسلم مرَّاتٍ كثيرة في أيَّامه ولياليه في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]، فذكر جلّ وعلا أقسامًا ثلاثة:

- قسْمًا أنعم الله ﷻ عليهم.
- وضالِّين.
- ومغضوبٍ عليهم.

فهـٰذه أقسام الناس:

* قسمٌ منعمٌ عليه.

* وقسمٌ مغضوبٌ عليهم.

* وقسمٌ ضالون.

وقد أمرنا أن ندعو الله ﷻ أن يهدينا صراط المُنعَم عليهم، وأنّ يعِيذنا من صراط المغضوب عليهم والضالين، وندعو بهـٰذه الدعوة دعاءً متكرِّرًا علىٰ وجه الوُجوبِ والفرْض سبع عشرَ مرّة في اليّوم والليلة في الصلاة المكتوبة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

والمنّعم عليهم هم الذين جمعوا بين العلم والعمل، العلم النَّافع والعمل الصَّالح فهم مُعتنون بعبادة الله وعبادتهم لله ﷻ وَفق ما شرع الله، وعبادتهم لله وفق ما شرع الله، ولا يُمكن أن تتأتىٰ لعبدٍ عبادة الله ﷻ بما شرَع إلا بالعلم النَّافع المستمد من كتاب الله جلّ وعلا وسنّة نبيِّه -صلوات الله وسلامه عليه.

والمغضوب عليهم هم الذين عندهم علم لا يعملون به؛ كما قال جلّ وعلا عن اليهود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة:٥]، ومعنىٰ ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها.

والضّالون هم الذين يعملون ويجدُّون ويجتهدون في الأعمال ولكن بلا علم، يعبدون الله ﷻ بالضلال وبالأهواء وبالباطل، دون تعويلٍ علىٰ شرعه ﷻ وما دعا عباده إلىٰ التقرب إليه به.

والله ﷻ لا يقبَل طريقًا إليه وسبيلًا لنيل مرضاته -جل وعلا- إلا سبيل المُنعَم عليهم الذين جمعوا بين العلم النَّافع والعمل الصالح، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] والهدىٰ هو العلم النافع، والدِّين الحقُّ هو العمل الصَّالح، فهٰذا هو الذي يرضاه الله ﷻ، وهو الذي شَرَعه لعباده -سبحانه- وخلقهم ﷻ لأجله.

ومن لم يكن عنده علمٌ فهو ضالّ.

ومن لم يكن عنده عملٌ فهو غاوٍ.

وقد قال الله سبحانه في الثَّناء علىٰ نبيِّه ﷺ وفي بيان كمال علمه وعمله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم]، ونفي الضلال عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ فيه إثباتُ تمام العلم، ونفي الغواية فيه إثبات تمام العمل؛ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ فنفي الضلال فيه إثبات العلم، ونفي الغواية فيه إثبات العمل.

فالضال هو الذي لا علم له، والغاوي هو الذي لا عمل له إلا الأعمال المنحرفة الزائغة.

وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في بيان مكانة الخلفاء الرَّاشدين من بعده صلوات الله وسلامه عليه مُثنيًا عليهم بكمال العلم والعمل: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الرّاشدين المهديِّين من بعدي، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل مُحدثةٍ بدعة**» فوصفهم بالرَّاشدين المَهديِّين «**عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**» والرَّاشد من صلَحَ عمَله، والمهدي من صلح علمه،

فأثنىٰ عليهم -صلوات الله وسلامه عليه- بالأمرين معًا؛ بالعلم والعمل.

ولهـٰذا فإن قول النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» ليس المراد به مجرّد الاستكثار من العلم والحفظ لنصوصه والمذاكرة لمسائله والجلوس في حِلقه؛ وإنَّما المُراد بذلك الفقه المُستلزم للعمل بحيث تكون همَّة المتعلِّم أن يتبصَّر في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليعبده وليتقرَّب إليه ﷻ بما شرع، لا أن تكون همَّته مجرد توسُّع معارفه، وزيادة اطِّلاعه، وكثرة محفوظاته، وتفنّنه في مسائل العلم ونحو ذلك، وإنّما تكون همَّته في طلبه للعلم وتحصيله له، أنّ يرفع الجهل عن نفسه، وأنّ يُصلح بذلك عمله وتقربه لربه ﷻ؛ فيكون بذلك صلح في نفسه ؛ ثم ليدعو الناس إلىٰ هـٰذا الخير الذي هداه الله ﷻ له ووفقه إليه، وجُمعت هـٰذه المعاني في سورة العصر ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

من لم يكن من أهل هـٰذه الصفات المذكورة في هـٰذه السورة فهو خاسر؛ لأنّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يستثنِ من الخسران إلا من اتَّصف بهـٰذه الصفات ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ فهـٰذا هو الفقه الذي أُثني علىٰ أهله وذكر فضلهم وخيريّتهم في هـٰذا الحديث «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».

وإذا طالعنا السِّيرة العمليَّة والهَدي المبارك والنهج القويم الذي كان عليه أصحابُ النَّبيِّ ﷺ في الجمْع بين الأمرين، والحرص علىٰ العلم للعمل، والمُبادرة إلىٰ العمل فور سماعه، والمواظبة عليه بهمَّة عالية وعزْمٍ أكيد ورغبةٍ صادقة؛ نُدرك حقيقة الفقه في دين الله ﷻ.

وإذا وقفنا علىٰ بعض الأمثلة -والأمثلة في هـٰذا الباب تطول- نُدرك الهمَّة العالية التي كان عليها الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ السبَّاقون إلىٰ كلِّ خير في طلب العلم لأجل العمل، ومبادرتهم فور سماع العلم إلىٰ تطبيقه وتنفيذه والمُسارعة إليه وعدم التخلِّي عنه.

ومن ذلكم ما جاء من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في «صحيح مسلم»: أنَّ النبيَّ ﷺ رأىٰ في يد رجلٍ خاتمًا من ذهب فنزعه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وطرحهُ في الأرض، وقال: «**أيعمد أحدكم إلىٰ جمرةٍ من نار فيضعها في يده**». ثم لما انصرف عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال بعض الصحابة لذلك الرجل: خذ خاتمك انتفع به. أي: انتفع به بأنواع الانتفاعات المباحة، إما أن تبيعه، أو يكون لأهلك قال: والله لا آخذ شيئًا طرحهُ رسول الله ﷺ. مع أنَّ أَخْذَهُ له استعماله له في وجهٍ مباح؛ لكن نفسه عافت هـٰذا الأمر؛ لأن النبي

عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ طرحهُ وزهدَت نفسه فيه لكون النّبي ﷺ نزعهُ من يدِّه وطرحه في الأرض.

وكم يُرىٰ علىٰ الناس من مخالفات في الألبسة؟ ويسمعون الأحاديث ويسمعون الوعيد ويسمعون التهديد وتَطْرق أسماعهم وآذانهم أحاديث رسول الله ﷺ مرّةً تلوىٰ الأخرىٰ زجرًا ونهيًا وتهديدًا ووعيدًا، ويمضي علىٰ ما هو عليه وكأن الأمر لا يعنيه وكأنه ليس مخاطبًا بهـٰذا الأمر، لا يُبالي؛ بل بعض الناس يُجادل وهمته منصرفة إلىٰ الجدل عن العناية بالعمل، وقد قال ﷻ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف]، قال النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**ما ضل قومٌ عن هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» ثم تلا الآية الكريمة ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الزخرف] فيشتغل بالجدل ويدَع العمل، ولهـٰذا يختلف حال من يسمع الحديث والرغبة ملأت قلبه حرصًا علىٰ تطبيقه والعمل به وبين من يسمع الحديث ونفسه متفلّتة ليست راغبة في العمل، فالذي يسمع الحديث عن رغبةٍ في العمل همّته وقلبه يتَّجه رأسًا للعمل والتنفيذ، أمّا الآخر الذي لم يقم في قلبه رَغبة في العمل يُشغلّ عن التنفيذ والعمل بالجدل، ويبدأ يسأل أسئلة تدل علىٰ عدم رغبته في العمل وعدم حرصه عليه، وعدم اتجاه عنايته له؛ فيبدأ يُجادل مثل الطفل الصغير إذا أُمر بأمرٍ ولا يريد أن يُنفذ ولا يرغب أنّ يُنفِّذ يبدأ يسأل عدة أسئلة حتىٰ يملّ من أراد منه الحاجة فيتركه، يقول له: أحضر لي ماءً. تريد الماء بالكأس أم تريد الماء بكذا، تريد الماء بارد أم حار؟! حتىٰ يقول: لا نحتاج.

وهكذا همة الذي لا رغبة له بالعمل رأسًا همّته تخوض في الجدل، ويبدأ يسأل أسئلة كثيرة مُحصّلها ومفادها أنه لا رغبة له في العمل ولا همّة له، تأتي له بأحاديث فيها وعيد تُخوِّف وتهزّ القلب فيبدأ بالخوض في أسئلة تدلُّ علىٰ زهده في العمل وعدم رغبته فيه.

لما نزلّ تحريم الخمر يقول أنس رضي الله عنه والحديث في «الصحيحين»: كنت أسقي أبا طلحة، كان عنده مجموعة من الصحابة خمرًا وهم جالسون علىٰ مائدة الخمر ويتناولونها ويُدار عليهم كأس الخمر، ونفوسهم ألفت ذلك واعتادته، لمّا نزل تحريم الخمر جاءهم رجل واحد وقال: حرمّت الخمر فرأسًا أمروا بإراقتها في نفس اللحظة بدون جدل، في نفس اللحظة أمروا بإراقتها وكسر قنان الخمر وأوعية الخمر في نفس اللحظة بدون جدل رأسًا همَّة صادقة في التنفيذ والعمل.

جاء في «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: «**لا تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفًا فليحلف بالله**» وكان رضي الله عنه اعتاد من فترة الجاهلية علىٰ الحلف بأبيه وتجري

علىٰ لسانه دائمًا، يجري علىٰ لسانه دائمًا الحلف بأبيه، ونحن نعْلم أنّ الشخص إذا جرىٰ علىٰ لسانه شيء واعتاد عليه لسانهُ إذا أدرك خطأ هـٰذا الأمر وانتهىٰ عنه ربما ينفلت من لسانه ذلك بعض المرّات لكونه اعتاد علىٰ هـٰذا الأمر، ولهـٰذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من حلف باللَّات والعزّىٰ فليقل: لا إلـٰه إلا الله**» -يعني تكفيرًا -لأنهم اعتادت ألسنتهم فقد تأتي علىٰ اللسان عن غير قصد تنفلت من لسان الإنسان عن غير قصد؛ فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمع النّبي ﷺ يقول: «**لا تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفًا فليحلف بالله**» قال: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتُ رسول الله ﷺ ينهىٰ عن ذلك لا ذاكرًا ولا آثرًا -يعني لم أحلف بها لا من قولي ولا حكاية لقول غيري- بينما بعض الناس تُذكر له هـٰذه الأحاديث والنُّصوص التي فيها أنّ هـٰذا العمل شرك وأنّه كُفر من حلف بغير الله فقد كفَر أو أشرك، وما جاء في ذلك من وعيد فتجّده يمضي علىٰ حاله ولا يبالي، وبعضُهم تجِدُه يُريد أنّ يتخلَّص من ذلك؛ ولكنه يُغلب علىٰ ذلك، أو يغلبه التهاون وعدم الاكتراث بهـٰذا الأمر.

ولهـٰذا ممّا يُذكر في هـٰذا المقام أنّ رجلًا ناصَحَ شخصًا يحلف بالنّبي، وحذَّره من ذلك، وذكر له النُّصوص حتىٰ فهم واقتنع، فلما اقتنع أراد أنّ يؤكِّد لمن ناصحه التزامه بالأمر فحلف له بالنّبي أنه لن يحلف بالنّبي مرّة ثانية -علىٰ ما اعتاد عليه لسانه واستمرت عليه حاله.

ولهـٰذا لمّا ننْظر واقعنا وننْظر واقع السَّلف نجد البون الشاسع في باب التطبيق حتىٰ إذا نظرنا في السّنن والمستحبات نجد فرقًا شاسعًا؛ همَّة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ متَّجهة للعمل اتِّجاهًا عجيبًا.

جاء في حديث عليٍّ في «الصَّحيحين» أنَّ فاطمة بنت النبي ﷺ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن عليّ وعن الصَّحابة أجمعين-، جاءت إلىٰ النبي ﷺ- تطلب خادمًا فقال لها عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**أو لا أدلُّكِ علىٰ ما هو خيرٌ لكِ من خادم؟ إذا أويت إلىٰ فراشك تسبحين الله ثلاثًا وثلاثين، وتحمدينه ثلاثًا وثلاثين، وتكبرينه أربع وثلاثين**» وقد أخذ أهل العلم من هـٰذا الحديث أنّ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعطي الجسم قوةً ونشاطًا لمباشرة الأعمال والنهوض بالمهام؛ ولهـٰذا يذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يجلس في المسجد إلىٰ الضحىٰ يذكر الله يقول: (فسألته مرّة في ذلك. قال: لو لم أفعل ذلك لخارت قواي) يعني: يضعف ويترهل بدني ولا أنشط، فالذكر يعطي الجسم قوة.

قال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. انظر إلىٰ المسارعة والمواظبة، منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

فأحد الحاضرين اختار ليلة عصيبة وهي ليلة صفِّين التي دارت فيها رحىٰ الحرب، ومن المعلوم أنّ المواقف الشّديدة قد تجعل الإنسان يذهل عن الأمور التي اعتاد عليها وألفها؛ فلمّا قال عليرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ. قال له رجل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين. يعني تلك الليلة التي في مثلها قد يذهل الإنسان عن الأمور التي اعتاد عليها وواظب عليها، يقول: ما تركتها حتىٰ في تلك الليلة -.

وهـٰذا فيه أيضًا من الفائدة أن الأذكار يحتاج المقام فيها إلىٰ مواظبة مستمرّة وإلىٰ عناية دائمة، ويحرصّ العبد ألا تفوته حتىٰ يحظىٰ بالثمار والآثار المترتبة عليها.

ولهـٰذا مما يذكر في هـٰذا المقام ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبان بن عثمان لما روىٰ حديث النّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من قال حين يصبح: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، قال: لم يضره شيء**»؛ فلما روىٰ الحديث أبان إذا برجل ينْظر إليه نظراتٍ فيها استغراب -لأن أبان كان مُصابًا بالفالج - الفالج مثل الشلل في جزء من البدن- فكان ينْظر إليه نظرة استغراب ينْظر إلىٰ الجهة المُصابة في بدنه، وكأن نظراته تقول: لم يضره شيء! إذن ما هـٰذا الذي أنت مُصابٌ به؟ فالحديث لم يضره شيء! فعرف نظراته، قال: لا تنظر، نسيته مرة ليُمضي الله فيَّ قدره، ولذا يحتاج الإنسان أنّ يُعنىٰ بالمواظبة المستمرة ويُجاهد نفسه علىٰ ذلك.

القرطبي المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لمّا أورد حديث النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتىٰ يرحل من منزله**».

يقول: ما تركته منذ سمعته إلا أنني مرةً كنت في المهديّة -منطقة- يقول: فلدغتني عقرب - نزلنا بالمهديّة فلدغتني عقرب - فذكرت أنني نسيته تلك الليلة، نسيته في ذلك المنزل.

من أمثلة المسارعة والمبادرة والمواظبة حديث أمّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «صحيح مسلم» قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**من حافظَ علىٰ ثنتي عشْرة ركعة في اليوم واللَّيلة بنىٰ الله له بيتًا في الجنة**» قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ. وأيضًا عدد من الرّواة في «صحيح مسلم» كل واحد منهم يقول بعد رواية الحديث: ما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ.

وجاء في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتىٰ أموت - وهـٰذا موضع الشاهد- أن «**أوتر قبل أن أنام، وصلاة الضحىٰ وصيام ثلاثة أيام من كل**

شهر» قال: لا أدعهن حتىٰ أموت.

وجاء نحوه في «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة في حياة السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتىٰ في صِغار الصحابة عُمر بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثه في «الصحيحين» يقول: كنت غلامًا في حَجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصَّحْفة؛ يعني لا تكون في مكان واحد في إناء الطعام وإنَّما يأخذ من هنا ويأخذ من هناك-؛ فقال لي النّبي ﷺ: «**يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك وكل ممَّا يليك**». قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء في «صحيح البخاري»: فما زالت تلك طِعْمتي بعد.

من صغار الصَّحابة غلام في حجر الرسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ومرّة واحدة قال له النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**يا غلام سمّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك**» قال: فما زالت تلك طِعْمتي بعد.

ويتعب الآباء والأمهات في البيوت مع الأولاد في النّهي عن المخالفة في الطعام أو في غيره؛ يا فلان، يا بني، مرات ويتكرر الخطأ، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: فما زالت تلك طِعْمتي بعد.

أيضًا إذا نظرنا إلىٰ حال السلف:

الإمام أحمد صاحب «المسند» وهو موسوعة حافلة ومليئة بالأحاديث عن رسول الله ﷺ، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: ما سمعتُ حديثًا إلا عملت به، حتىٰ لمّا بلغني أن النّبي ﷺ احتجم وأعطىٰ الحاجم دينارا فاحتجمت وأعطيت الحاجم دينارا. ويقول قيس المُلَّائي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا سمعت الحديث فاعمل به ولو مرّة تكن من أهله) مرادُه بالحديث المُشتمل علىٰ السُّنن والرَّغائب والمستحبَّات، (اعمل به ولو مرّة تكن من أهله) - يعني الحديث الذي فيه سنة من السنن -أما أنّ يزهد الإنسان في العمل كليةً ولا تكون همته متجهة إلىٰ العمل؛ فهـٰذا أمرٌ لم يكن عليه السلف الصالح -رحمهم الله.

ولما أورد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «**من قرأ آية الكُرسي دُبر كلِّ صلاةٍ لم يكن بينه وبين الجنة إلا أن يموت**»، قال: بلغني أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (ما تركتُها عُقيب كل صلاة).

والآثار والنُّقول عن السلف في هـٰذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

ولهـٰذا ينبغي علىٰ طالب العلم أن يتَّجه للأمرين معًا للعلم والعمل، وأنّ يكون مقصُوده بطلب العلم أنّ يعمل به، وإلا فإن العلم يكون حُجَّة عليه لا له.

وقد سئل سفيان: (أيُّهما أحبُّ إليك العلم أو العمل؟ قال: إنما يُطلب العلم للعمل، فلا تطلب العلم

وتدع العمل، ولا تطلب العمل وتدع العلم). يعني اجمع بين الأمرين علم وعمل؛ هدىٰ ودينٌ حق.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يمُنَّ علينا بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح والرِّزق الطَّيب، أن يهدينا إليه صراطًا مُستقيما، ألَّا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادُنا، وأن يجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير والمَوت راحةً لنا من كل شرّ، وأن يُصلح ذات بيننا وأن يُؤلف بين قلوبنا، أن يهدينا سُبل السلام، وأن يُخرجنا من الظُّلمات إلىٰ النور، أن يُبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرِّياتنا وأموالنا وأوقاتنا، وأن يجعلنا مبارَكين أينما كُنّا، ونسأله جلّ وعلا أن يُصلح لنا شأننا كلَّه، وألَّا يكلنا إلىٰ أنفُسنا طَرْفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات .

ونسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأنْ يُعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدُّعاء، وهو أهل الرَّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والله تعالىٰ أعلم وصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.